الفصل الحادي عشر

شعائر الدين

الشك مقدمة اليقين

إنني، وخلافاً لكثير من الأفراد، لا انزعج إطلاقاً من طرح التشكيكات والقاء الشبهات فيما يتعلق بالقضايا الإسلامية، رغم ما اتمتع به من الايمان بهذا الدين والرغبة الجامحة فيه، بل يسرني ذلك كثيراً؛ لأنني اعتقد، وقد شاهدتُ ذلك بالتجربة العملية خلال أيام حياتي، بأن هذا الدين السماوي المقدس كلما تعرَّض في جبهة من الجبهات للمواجهة والهجمات، خرج من المعركة قوياً عزيزاً ظاهراً متلألئاً.

إن ميزة الحقيقة هي أنّ الشك والتشكيك يساعدان على إشراقها أكثر فأكثر. فالشك مقدمة اليقين، والتشكيك سُلّم البحث والتنقيب. وقد جاء في رسالة (ميزان العمل) للغزالي ما نصّه: «... ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً. إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»(*).

دعوهم يقولوا ويكتبوا ويعقدوا الندوات ويثيروا الاشكالات، حتى يكونوا ـ دون ارادة منهم ـ وسيلة انبلاج حقائق الإسلام(1).

الاستخفاف بالصلاة

روي عن أبي بصير أنه قال: دخلتُ على أُم حميدة اعزيها بأبي عبد الله

---

(1) المصدر السابق، ص23-24.

(*) الغزالي، أبو حامد. **ميزان العمل**، القاهرة: المطبعة العربية، ط2، 1342هـ، ص165.

الصادق عليه السلام، فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد، لو رأيت أبا عبدالله عند الموت لرأيت عجباً؛ فتح عينيه ثم قال: أجمعوا لي كلّ من بيني وبينه قرابة، قالت؛ فلم نترك أحداً إلا جمعناه، قالت: فنظر إليهم، ثم قال: «إن شفاعتنا لاتنال مستخفاً بالصلاة».

لم يقل الإمام عليه السلام أن شفاعتنا لا تنال تارك الصلاة، ذلك لأن مصير تارك الصلاة واضح ومعلوم، وإنما أشار إلى المستخفين بالصلاة، فماذا يعني الاستخفاف بالصلاة؟

يعني أن الفرد يكون في متسع من الوقت وبإمكانه أداء الصلاة بطمأنينة إلا أنه لا يصليها لوقتها، فيؤخر صلاتي الظهر والعصر إلى ما قبل الغروب، فعندما يقترب غروب الشمس يسارع إلى الوضوء ثم أداء الصلاة بسرعة، وفوراً يدع سجادته جانباً، إنها صلاة دون مقدمات ودون تعقيبات، لاطمأنينة فيها ولا حضور قلب. وهو يتصرف بطريقة وكأن الصلاة عبء ينبغي التخلص منه. هذا هو الاستخفاف بالصلاة. وفرق كبير بين هذه الصلاة وبين الصلاة التي يستعد الإنسان لاستقبالها، فعندما يحين الظهر يتوجه بطمأنينة كاملة للتوضُؤ، ويسبغ وضوءً بكامل ادابه، ثم يقف في مصلاه ويؤذن ويقيم، ويؤدي الصلاة بارتياح وفراغ بال، وعندما يسلم لايترك مصلاه هارباً، بل يجلس ذاكراً ربه فترة بعد الصلاة.

والمستخفون بالصلاة عادةً ما يؤدون صلاة الصبح والشمس تكاد تشرق، ويؤدون الظهرين قريباً من غروب الشمس، وأما العشاءان فيصليهما بعد مضي ساعات من الليل، ويؤدونها بسرعة واستعجال، وقد دلت التجارب أن أولاد هؤلاء الأفراد لايكونون من المصلين أبداً. فإذا أردت أن تكون من المصلين حقاً، وأن يكون أولادك مصلين أيضاً فعليك باحترام الصلاة، لا اقول عليك بالصلاة، بل أكثر من ذلك عليك باحترام الصلاة وتكريمها، فاتخذ اولاً لنفسك مصلي في البيت (وهذا امر مستحب) أي حدد مكاناً معَيّناً في البيت وخصصه للصلاة، فاجعله محراباً لصلاة العائلة... فإن لم تكن لك غرفة إضافية في البيت لتخصيصها لهذا الغرض كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله،

فاجعل جانباً من إحدى الغرف للصلاة، وافرشها بسجادة نظيفة، واجعل فيها السواك والسبحة لذكر الله تعالى...[2].

الاستخفاف بالصوم والعبادة

وينبغي عدم الاستخفاف بالصوم أيضاً، فهناك من يصوم بطريقة قد لا يتقبلها الله منه. فمن الناس من يسهر ليالي شهر رمضان لا ليشتغل بالعبادة وذكر الله، وإنما لكي يؤخر نومه للنهار، فيشرب الشاي ويدخن السيجارة طوال الليل، وعندما يبزغ الفجر يؤدي فريضة الصبح ويخلد للنوم ولايستيقظ إلا حينما يشارف وقت الظهرين على الانتهاء فيقوم ويصلي الظهرين قُبيل المغرب بسرعة ثم يجلس على مائدة الافطار. فما هذا الصوم؟ أن يسهر الشخص طوال الليل لكي يقضي نهاره نائماً ولا يتحسس ألم الصوم، اليس هذا استخفافاً بالصوم؟ باعتقادي أنّ هذا السلوك هو بمثابة السب والشتم للصوم، وكأن الشخص يقول للصوم: إنني اكرهك إلى درجة أنني لا أريد الإحساس بك!

إذن، ينبغي عدم الاستخفاف بالعبادة، على كل منا أن يكون مسلماً كاملاً جامعاً، فقيمة الإسلام هي بشموليته، لا أن نتمسك بالعبادة فقط ونترك كل شيء آخر غيرها، ولا أن نكون كالفئات التي ظهرت أخيراً نأخذ من الإسلام تعاليمه الاجتماعية فقط ونستخف بالعبادة، ونحتقرها. فالعبادة هي ركن أساسي من أركان الدين، وهي وسيلة التقرب إلى الله تعالى، كما أن الهدف منها ذكر الله سبحانه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، والتقرب إلى الله وذكر الله هو هدف كبير ما وراءه هدف اخر، ولكن إضافة إلى كل هذا فإن الاستخفاف بالعبادة واحتقارها يؤدي إلى التخلف عن سائر الوظائف والواجبات، فالعبادة هي بمثابة السلطة التنفيذية التي تكفل تطبيق التعاليم والاحكام الإسلامية[3].

(2) مطهري، گفتارهاي معنوي [المقالات الروحية]، ص70.
(3) المصدر السابق.

في مواجهة البيئة الفاسدة

القرآن الكريم يرفض اعتذار الأشخاص بما يُطلق عليه اليوم بجبر البيئة ومتطلبات الظروف. الكثير من الناس بجبر البيئة، عندما تسأل أحدهم: لماذا هذا السلوك الناشز؟ وأنت أيتها السيدة لماذا تخرجين سافرة؟ يأتيك الجواب: هذه هي الظروف التي نعيشها، إنها تتطلب هذا السلوك. ونسأل شخصاً آخر: لماذا تحضر المجالس التي يحرم حضورها، إذ الجلوس على مائدة يُشرب عليها الخمر حرام ولو كان بهدف أكل الحلال؟ يجيب: إن البيئة هنا تتطلب هذا الأمر، ماذا نفعل إذا كانت البيئة فاسدة؟ لماذا تسمح لأولادك بمشاهدة الأفلام الفاسدة؟ يقول: هذا ما تفرضه الظروف، وهل باستطاعتنا مقاومة المحيط؟ لماذا لا يذهبون إلى المسجد؟ لأن البيئة فاسدة! وهكذا أصبحت مسألة جبر البيئة والمحيط عذراً يتشبث به العديد من الناس.

ولكن الإسلام يرفض هذا العذر، فنحن يجب علينا للوهلة الأولى أن نعمل على إعداد ظروفنا وبيئتنا لحياة إسلامية تماماً، أما إذا لم نستطع أن نغير بيئتنا وظروفنا إلى بيئة إسلامية وأن نغيِّر أجواءنا إلى أجواء إسلامية، وإذا شعرنا بأن البيئة التي نعيش فيها تهدد إيماننا وإيمان عائلتنا وأبنائنا وذريتنا، فإن الإسلام يأمرنا بترك هذه البيئة والانتقال عنها. ولايعني ترك البيئة بالضرورة الهجرة من المدينة أو من الوطن، بل يصدق أحياناً بتغيير منطقة السكن إلى أخرى أفضل. ففي المدن الكبيرة ـ مثل طهران ـ قد تجد منطقة تتمتع باجواء إسلامية، وإذا ما نشأ الطفل في مثل هذه الاجواء ينشأ على الاداب والتقاليد والتربية الإسلامية [بينما هناك مناطق أخرى لاتتمتع بهذه الصفة] فإذا غيّر الإنسان منطقة سكنه إلى منطقة أفضل تغيرت أجواؤه أيضاً...

... فهناك مناطق وشوارع قد لاتكون اجواؤها سليمة، وإذا ما سكن الإنسان مع عائلته فيها فانهم يتأثرون سلباً بتلك الأجواء.. بالجيران، بانعدام المساجد، بأن العائلة لاتستطيع أن تفتح عيونها على رجل وامرأة يتمسكان بالشعائر الإسلامية، فلا وجود لمسجد، ولا لمجالس الارشاد والتوجيه، لاتسمع اسم الله عزوجل، لا ترى أثراً للاسلام، بل ترى عكس ذلك، فكلما رأيت بيتاً في المنطقة خرج منه شخص يودعه كلبه، أو يرافقه الكلب في

سيارته، لاتسمع صوتاً غير الموسيقى المحرمة وغير أصوات اللهو واللعب، لا ترى اشخاصاً غير الذين لايحملون في سيماهم أية علامة من الإسلام فقد لاتؤثر هذه الأمور السلبية على الوالدين الذين نشئا في أجواء إسلامية ولكن الطفل الذي يفتح عينيه ـ ولما يتجاوز السنتين ـ على هذه الأجواء وهذه السلوكيات فإنه لاينشأ حتماً نشأة اسلامية، فما هو الواجب هنا؟

الواجب الاول الذي يواجهه من يسكن في مثل هذه المناطق هو العمل على تغيير الأجواء إلى أجواء اسلامية. فعندما لاتجد مسجداً هناك اعمل على بناء مسجد، وبالطبع لايكفي المسجد وصلاة الجماعة وحدهما، بل ينبغي العمل على إنشاء مسجد، وتشكيل مجالس الوعظ والارشاد، وقراءة القرآن، وتبليغ الإسلام. فإذا تحققت هذه الأمور فإن الإنسان لايكون غير مذنب فحسب، بل يكون عاملاً لتبليغ ونشر الإسلام[4].

متطلبات الزمن أم موضة العصر؟

متطلبات الزمن تعني متطلبات البيئة والمجتمع والمعيشة، فلأن الإنسان يتمتع بالعقل والمبادرة والاختيار ويرنو دائماً إلى حياة أفضل، فهو يُدخل إلى حياته بشكل متواصل أفكاراً وعوامل واساليب أفضل لسد حاجاته الاقتصادية والاجتماعية والمعنوية. ودخول العوامل والوسائل الاكمل إلى الحياة يؤدي تلقائياً إلى انسحاب العوامل القديمة والاضعف، وبالتالي نشوء علاقة وثيقة بين الإنسان وبين العوامل الجديدة ومتطلباتها الخاصة. إن ارتباط الإنسان بمجموعة من الحاجات المادية والمعنوية والتغيير المستمر للعوامل والوسائل التي تسد هذه الحاجات، وتكاملها وتحسّنها الدائم، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى ظهور مجموعة من الحاجات الجديدة أيضاً، إن هذا الارتباط يؤدي إلى أن تتغير في كل عصر وزمان متطلبات البيئة والمجتمع والمعيشة، وأن يكيّف الإنسان نفسه مع هذه المتطلبات الجديدة، ولاينبغي مكافحة هذا النوع من المتطلبات، بل لايمكن ذلك.

---

(4) المصدر السابق، ص241-244.

ولكن، وللأسف، فإن كل الظواهر الجديدة التي يشهدها الزمن ليست من نوع الأفكار الأفضل والعوامل والوسائل الأكمل لتوفير حياة أكثر سعادة للإنسان. فالزمن والبيئة والمجتمع هي من صنع يد الإنسان، والإنسان ليس معصوماً عن الخطأ، من هنا فإن وظيفة الإنسان لاتقتصر على التكيّف مع الزمن ومع أفكار وعادات ورغبات الزمن، بل من وظيفته ضبط وإصلاح الزمن أيضاً. إذا كان على الإنسان أن يكيّف نفسه مئة في المئة مع الزمن، إذن فمع أي شيء ينبغي ان يكيّف الزمن؟!

الموضة والحداثة

كما باستطاعة الإنسان أن يتقدم، كذلك تكمن فيه احتمالات التخلف، وعلي هذا فإن امكانية الانحراف في الإنسان موجودة. إذن ليس من المقبول أن نطلق إسم الحداثة على كل ظاهرة جديدة في هذا القرن، ثم نعتبرها أمراً ايجابياً وحسناً، فمن الخطأ الاستجابة لمتطلبات الزمن بهذا المعني وبشكل مطلق، بل ينبغي أن نتسلح بالوعي وندرس كل ظاهرة جديدة ونعرضها على المقاييس الأخرى التي سنشير اليها، فإذا كانت ايجابية أخذنا بها، وإن كانت سلبية تركناها، ولهذا السبب لايمكن الاعتراف بكل ما يتطلبه الزمن بمعني موضة العصر، ورغبة الناس، اي اننا ينبغي أن لاننظر إلى رغبة اكثرية الناس باعتبارها ظاهرة القرن ـ كما يُعبر عن ذلك في الصحف ـ فماذا تعني ظاهرة القرن؟. الهيروئين هو أيضاً ظاهرة القرن، لانه لم يكن موجوداً سابقاً، بل وجد بسبب تقدم علم الكيمياء. فاذا لاحظت أن الاجواء تفرض عليك شيئاً تحت شعار ظاهرة القرن، فعليك أن ترفض. انظروا إلى موضة الثياب القصيرة فهي ظاهرة القرن أيضاً، فماهي هذه الظاهرة؟ وحول رغبة الناس، يقولون أن الناس في عالم اليوم يرغبون هذا الأمر. عالم اليوم لايرغب في كذا، ويرغب في كذا، فماذا تعني هذه الرغبة؟ إن مطلق الرغبة لايدل على شيء.

فمثلاً: إذا تحدثنا عن ضرورة قطع يد السارق، قالوا: ماهذا الكلام، فعالم اليوم لايرغب في هذا الأمر. إن السرقة جريمة تقع في المجتمع، ونحن نتساءل: هل ينبغي ان نكافح هذه الجريمة أم لا؟ الجميع يقول: يجب ان

نكافحها، ونحن نقول بذلك ايضاً، ونضيف بأن الإسلام قرر هذه العقوبة للسارق، وقد أثبتت التجارب بأن هذه الجريمة تنعدم حينما يتم تطبيق العقوبة الإسلامية. قبل أكثر من 50 عاماً كان الحجاج في صحارى الجزيرة العربية يتعرضون للأذى، وكانت القوافل ذات الـ 500 شخص تتعرض للسلب، ولكن عندما تم تطبيق عقوبة قطع يد السارق نجد أن الأمن استتب في هذه الصحراء الشاسعة. ويأتي الآن من يقول إن عالم اليوم لايحبذ هذه العقوبات. ونقول: هل استطاع عالم اليوم أن يقدم طريقة أفضل؟ إذا كانت هناك طريقة أفضل وأثبتت التجارب جدواها، نحن نقبل بها أيضاً.

وهنا يقولون كلمة نقبلها نحن أيضاً. يقولون: ينبغي أن نعمل على تربية السارق أولاً. وهل نحن نقول بعدم الاهتمام بالتربية؟! ولكن السؤال حول من لم تؤثر فيه التربية واستمر على ارتكاب جريمة السرقة فما العمل تجاهه؟ هل استطاعت التربية والتعليم في العالم المعاصر ان تقتلع جذور الجريمة بشكل كامل؟ إذا كان الأمر كذلك كان يجب إلغاء العقوبات في العالم بشكل كامل. إذن، لماذا لم يحدث هذا الأمر؟ إن هذا يدل على أن التربية والتعليم لايستطيعان لوحدهما وقف الجريمة. إن تقريراً رسمياً من ألمانيا الغربية يقول بان العام الماضي شهد أكثر من ثمانين هجوماً مسلحاً على البنوك فقط. وفي أميركا تفتح العصابات الاجرامية مدارس لتعليم اساليب الجريمة. فماهو الدور الذي لعبه العالم المعاصر لوقف جريمة السرقة؟ لايكفي أن نكرر: بأن العالم لايحبذ هذا الأمر![5].

بين التقاليد البالية والعصرية

حالة (التقليد) موجودة في اكثرية الناس، والتي يعبر عنها القرآن الكريم باتباع الآباء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23]. فالسابقون عملوا هكذا، وعلينا أن نعمل مثلهم، وهل يمكن أن لانفعل ذلك؟ إنها العادة. هذه هي التبريرات التي يكررها الناس في الطبقات الضعيفة فكرياً.

(5) مطهري، اسلام ومقتضيات زمان [الإسلام والحاجات العصرية]، ص188-190.

فإذا قلت له: لاتفعل هذا الأمر. قال لك: إنها العادة. مثلاً إذا عارضت سلوكاً في الأعراس أو في المآتم، قالوا لك إنها العادة، ولايمكن ترك العادة. أما في الطبقات العصرية من المجتمع فهم يتمسكون بالموضة والنماذج العصرية، أي العادات الجديدة. فذاك يقلد عادة معَيّنة. وهذا يقلد عادة معَيّنة أيضاً، فلا فرق بين الاثنين في أنهما محبوسين في شرنقة العادات والتقاليد، ولكن ذاك يتمسك بالعادات والتقاليد البالية، وهذا يتمسك بالعادات والتقاليد الحديثة. فكلاهما اسير[6].

أساس الاخلاق

من الخطأ القول بأن الأخلاق تقوم على أساس الحُسن والقبح، فهذا القول ليس من الأفكار الإسلامية، وإننا نجد هذا القول في كلمات علماء الإسلام، ولكننا لانجده في الإسلام نفسه. لقد وردت هذه الفكرة من اليونان إلى المسلمين، وهي فكرة سقراطية، حيث يقول سقراط إن أساس الاخلاق هو الحسن والقبح العقليان. فلسقراط مدرسة أخلاقية، ويقولون عنها إن مدرسة سقراط الاخلاقية هي مدرسة عقلية، وسبب هذه التسمية هي أن سقراط يقول بأن الاخلاق الحسنة هي الأعمال التي يستحسنها العقل، والاخلاق السيئة التي ينبغي أن يتجنبها الإنسان، هي الأعمال التي يستقبحها العقل. فسقراط يؤسس مدرسته الاخلاقية على أساس العقل، أي الحسن والقبح العقليين، والذين قاموا بترجمة كتبه تبنّوا هذه الفكرة السقراطية، وإن علماء الإسلام الذين درسوا هذه الفكرة عرفوا أن أساس الحُسن والقبح ليس أساساً ثابتاً بل هو أمر متغير، ولكن الكلام هو أنه لماذا نحن نعتبر الحسن والقبح العقليين أساس الاخلاق ثم نحاول بعد ذلك الاجابة على إشكالات هذه الفكرة؟

فالأمر ليس كذلك، إذ الاخلاق تعني تنظيم الغرائز، فكما الطب يعني تنظيم القوى الجسمية، فالاخلاق كذلك تعني تنظيم القوي الروحية ولايقوم

(6) مطهري، فلسفه، تاريخ [فلسفة التاريخ]، ص299-300.

الطب على أساس الحُسن والقُبح العقليين، كذلك الاخلاق لا تقوم على أساسهما.

وما أُريد قوله هنا هو أنه حينما تكون حقيقة الأخلاق أن لكل صفة من صفات الإنسان، ولكل قوة من قوى الإنسان، حق يجب الوفاء به، وعلى الإنسان واجبات تجاهه، وحينما يكون معنى الاخلاق هو تربية وإعداد الجوانب الإنسانية وخاصة العقل والارادة في الإنسان إلى درجة تهيمن معها على سائر القوى، حينما يكون الأمر كذلك لايمكننا الادعاء بأن الاخلاق تختلف في الأزمنة والأمكنة المختلفة، فلي أخلاقي الخاصة بي ولك أنت أخلاقك الخاصة بك، ولهذا الزمان أخلاق معَيّنة، وللأزمنة الأخرى أخلاق أُخرى.

فالذين يتصورون أن الأخلاق أمر نسبي، يفكرون بعقلية سقراط، كلا: فأولاً، ليس أساس الاخلاق هو الحسن والقبح. وثانياً إن القول بأن الحُسن والقبح متغيران، أي أنهما يختلفان حسب اختلاف الازمنة والامكنة، قول صحيح وغير صحيح في الوقت نفسه، فقد أجرى العلامة طباطبائي [صاحب تفسير الميزان] دراسة في هذا المجال وتبنّي هذه النظرية: إن أصول الحسن العقلي وأصول القبح العقلي ثابتة، ولكن فروعهما متغيرة[7].

نحن مسلمون بالجغرافيا والتبعية

عندما نقول أن فلاناً مسلم، أو غير مسلم فليس ذلك بالنظر إلى حقيقة الأمر. بل إننا نعتبر مسلماً كل من يعيش في منطقة اسلامية ويحمل إسم الإسلام بحكم التقليد والتوارث من الاباء والامهات، أما غير هؤلاء ممن يعيشون في ظروف أُخرى وينتمون إلى دين آخر أو لا ينتمون أساساً إلى أي دين وذلك أيضاً بحكم التقليد والتوارث من الآباء والبيئة، فإننا نعتبرهم غير مسلمين.

ولكن علينا أن نعرف إن هذا المقياس ليس له قيمة تُذكر، لا في مجال كون الفرد مسلماً ولا كونه غير مسلم أو كافراً. فكثيرون منا مسلمون بالتقليد والجغرافيا، فنحن مسلمون لأن آباءنا وأُمهاتنا كانوا مسلمين، ولأننا ولدنا

(7) مطهري، اسلام ومقتضيات زمان [الإسلام والحاجات العصرية]، ج1، ص346-351.

ونشأنا في منطقة يقطنها أفراد مسلمون. وفي الواقع أن القيمة الحقيقية هي للاسلام الواقعي والذي يعني أن يكون الإنسان قلباً وواقعاً خاضعاً للحقيقة، أن يفتح أبواب قلبه للحقيقة، فما وجده حقاً قبله وعمل به، وأن يكون الإسلام الذي يؤمن به قائماً على أساس البحث والتحقيق من جهة، وتسليماً دون تعصّب من جهة أخرى[8].

الرؤية التشاؤمية بعيدة عن روح التوحيد

إن النظر إلى الخلق والمخلوقات وحركة الكون ونظامه بمنظار تشاؤمي لاينسجم مع النواة المركزية لفلسفة الإسلام وهي التوحيد. إن النظريات المتشائمة لابد أن تكون قائمة إما على أساس الفلسفة المادية وإنكار الخالق الحكيم العادل، وإما على أساس ثنائية الوجود وازدواجيته، كما نجد بعض الفلسفات والأديان تؤمن بأصلين ومبدأين للوجود، أحدهما مبدأ الخير والجمال، والآخر مبدأ الشر والسوء. أما الدين القائم على أساس التوحيد والايمان بالإله الرحمن الرحيم العليم الحكيم، فلا مجال فيه لهذه الافكار، كما نجد التصريح بذلك في كثير من الايات القرآنية. وما جاء في القرآن حول فناء الدنيا وزوالها وتشبيهها بالزرع الذي سرعان ما يصغر ويجف، كما في الاية 21 من سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إنما هو في الحقيقة للتسامي بقيمة الإنسان وأن عليه ألا يجعل منتهي أمله وغاية هدفه هي الأمور المادية وما ينتهي إليها، فالماديات الدنيوية ليست جديرة بأن تكون الهدف الأسمى للإنسان، وليس لهذا الأمر أية علاقة باعتبارنا الدنيا شراً وقبيحة في نفسها.

ولهذا فإننا لانجد أي واحد من علماء الإسلام يفسر تلك المجموعة من الايات بفكرة النظرة التشاؤمية والسلبية للخلق ولحركة الزمان[9].

---

(8) مطهري، عدل الهى [العدل الالهي]، ص38.

(9) مطهري، بيست گفتار [عشرون مقالة]، ص202 و203.

نهي الإسلام عن تقليد الآباء

يعتبر منهج الآباء والأجداد وطريقتهم من الأمور التي تجعل العقل يقع فريسة الخطأ والضلالة. إن هذا أمر مهم علينا أن لانغفل عنه، يقول فرنسيس بيكن: «إن أحد الأمور التي تخدع عقل الإنسان هو الطريق الذي سلكه السابقون»، وهو يعبر عن ذلك بالصنم فيقول: إن هذا الأمر تحوّل إلى صنم يخدع عقل الإنسان، فالإنسان إذا رأى أباه أو أمه يسلكان طريقاً، فهو يسلك الطريق نفسه أيضاً. فطريق السابقين لايسمح للإنسان بحرية التفكير، بل يقف حاجزاً أمام حرية الفكر. والقرآن يؤكد على هذا الموضوع المهم، وهو أول كتاب تحدث عن هذا الأمر، لقد بحثت في إحدى المرات كل الآيات القرآنية فوجدت أن كل نبيّ يُبعث إلى قومه، يقول له قومه إنك تدعونا إلى ما يخالف سيرة ابائنا، فاباؤنا سلكوا هذا الطريق ونحن نسلكه أيضاً، بينما كان الأنبيّاء يردون عليهم بأنه لايجب عليكم أن تسيروا في الطريق نفسه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 107] بل عليكم الاستماع لحكم العقل.

ومن الأمور الأخرى التي تسبب في انحراف العقل هو كبراء المجتمع المعاصرون، أي الشخصيات المرموقة في كل عصر الذين يتأثر الناس بهم عادة. يقول القرآن الكريم حكاية عن مجموعة من الناس حينما يُساقون إلى نار جهنم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: 67] فمن هؤلاء الكبراء؟ إن الله منحك عقلاً، وارسل لك الرسل، فلماذا اتباع الكبراء والاباء؟[10].

اشكالية المنهج الفكري للمسلمين

عندما نقول إن أسلوب تفكير المسلمين حول الإسلام في العصر الحاضر يعاني من المرض، فإنما نقصد بذلك فهمنا نحن المسلمين للاسلام. وإذا ما

(10) مطهري، اسلام ومقتضيات زمان [الإسلام والحاجات العصرية] ص108-109.

أردنا أن ندرس أسلوب التفكير هذا، فعلينا أن ندرسه كما يدرس الطبيب أية حالة مرضية. فأول ما يقوم به الطبيب هو فحص المريض لتحديد مرضه، فيطرح عليه بعض الاسئلة، عن ماضيه، عن مايشعر به الان من الالام، وهو يسعى من خلال كل ذلك إلى تحديد مرضه بالدرجة الأولى، ثم بعد ذلك يقوم بالعلاج.

وإذا أردنا نحن المسلمين أن نصحح أسلوب تفكيرنا فعلينا أن نعود إلى ماضينا وتاريخنا، ذلك لأن جذور هذا المرض يعود إلى أزمنة بعيدة. فبعض هذه الجذور يعود إلى ما قبل قرنين من الزمن، وبعضها إلى أربعة أو خمسة قرون مضت، وربما يعود بعضها إلى ماقبل ثلاثة عشر قرن، أي أنه وجد في القرن الهجري الثاني. . . .

ومن جملة الأمراض التي تعود جذورها إلى القرون الإسلامية الاولى: التقليل من أهمية تأثير العمل في سعادة الإنسان، وبعبارة أُخرى الانتقال من أسلوب التفكير الواقعي إلى الافكار الخيالية. وإذا ما عاد الإنسان إلى القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للاسلام، وعاد بعد ذلك إلى السنة النبوية القطعية وأيضاً السنن القطعية الصادرة عن أئمة أهل البيت، فإنه يلاحظ بوضوح بأن الأصل هو أن الإسلام دين العمل.

العمل أساس التربية والتعليم

إن الأساس في التعليم والتربية الإسلامية هو العمل. فالإسلام يوجه الإنسان إلى أن أساس كل شيء هو العمل، فمصير الإنسان يحدده عمله، وهذا هو منهج فكري واقعي ويتطابق مع قانون الكسب، فما أكثر ما يتحدث القرآن عن العمل وبعبارات صريحة وجميلة، مثلاً: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي إن سعادة الإنسان تتوقف على عمله. وأيضاً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ويُعتبر هذا التعليم من اكبر التعليمات المفيدة لحياة أُمة من الامم. فعندما تعرف الأمة أن مصيرها بيدها، وأن عملها هو الذي يحدد مصيرها، عندها تهتم بعملها وبطاقاتها، وتعرف أن لاشيء ينفعها غير العمل وغير الطاقة التي تبذلها في السعى والعمل. إن هذا

عامل كبير لمواصلة الحياة. واذا وجدنا أن المسلمين في العهد الإسلامي الاول كانوا يتمتعون بطاقة حركية كبيرة فلان هذه الفكرة كانت تشكل إحدى قواعد تفكيرهم، فقد تلقوا هذا التوجيه من منهله الأصيل، ولم يكونوا قد انحرفوا بعد، كان تفكيرهم يقوم على أساس أن العمل والسعي والحركة هي الأمور الوحيدة التي تنفع الإنسان، ولا شيء غير هذه (وبالطبع فإن عمل المسلم لايختص بعمل الجوارح فقط، بل إن نيته ينبغي أن تكون سليمة أيضاً، كما إن إيمانه ينبغي أن يكون سليماً). فكم تمنح هذه الفكرة للإنسان ثقته بنفسه؟ وكم تجعله يعتمد على طاقاته؟ ولكن من جملة التعاليم الإسلامية التي تضررت وأصيبت في العهد الإسلامي الأول، وكلما مضى عليها الزمن تعمقت إصابتها، هو هذا التعليم الذي أشرنا إليه.

فقد ظهرت شيئاً فشيئاً بعض الأفكار التي تقلل من أهمية العمل وتظهره على أنه شيء لا قيمة له، وبعبارة أُخرى: فإن أسلوب تفكير المسلمين في قضية بناء سعادة الإنسان اتجه من الأسلوب الواقعي إلى الأسلوب الخيالي...

ومنذ القديم كان علماء الكلام يطرحون هذا التساؤل: هل الأصل هو الايمان؟ أم الكفر؟ ما هو الايمان؟ وقد أشاع بعض الحكام الفاسقين الفكرة القائلة بأن الأساس هو أن نتمتع بالايمان، وإذا كان الايمان سليماً وصحيحاً فلا أهمية حينئذ للعمل...

ويدل تاريخ علم الكلام على أن القرن الهجري الثاني قد شهد ظهور فرقة جديدة على المسرح تُسمى بالمرجئة، وكانت هذه الفكرة تشكل أحد أصول عقائد المرجئة [الجهمية]، ولذلك فإن خلفاء بني أمية كانوا يحمونهم.

كيف كان الشيعة يفكرون في ذلك العهد؟ أي كيف كانت تعاليم أئمة أهل البيت؟ ما الذي كنا نستلهمه من الإمام علي عليه السلام عندما كان الأئمة عليهم السلام يُسألون عن ماهية الايمان، كان الجواب: «الايمان إقرار باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان».

فالايمان يتحقق من خلال ثلاثة أسس: الاقرار الكلامي، والاعتقاد القلبي، والعمل بالأعضاء والجوارح، فأئمتنا عليهم السلام يعتبرون العمل

جزءً من الايمان، فمن لا عمل له، لا ايمان له. فلا يستطيع أحدنا أن يخدع نفسه ويقول بأن الايمان امر منفصل عن العمل، وإذا رأيتم القرآن يكرِّم المؤمنين فلا تظنوا أن المقصود بهم من يكون له انتماء عقائدي دون المشاركة في برنامج عملي. كلا، فكلما ذكر القرآن المؤمنين ومدحهم فإنما المقصود من يشهد الشهادتين بلسانه، ويعتقد بقلبه، ويعمل بأعضائه وجوارحه[11].

التقوى والإكراه الذاتي

تذكر كتب الأخلاق أحياناً أن جماعة من القدماء كانوا يضعون في أفواههم عدداً من الحصيات لكي تمنعهم من الكلام الكثير، أو الكلام اللغو والحرام، أي أنهم كانوا يجبرون أنفسهم عملياً على تجنب هذا النوع من الحرام. ونشاهد عادة إن هذا النوع من العمل يُعد بمثابة النموذج الكامل للتقوى، بينما الاجبار العملي لتجنب المعصية ثم ترك المعصية بسبب ذلك لايُعد كمالاً، فإذا استطاع الواحد منا أن يوفق لترك المعصية عن هذا الطريق، يكون قد تجنب ارتكاب المعصية فعلاً، إلا أن نفسه تظل هي ذات الأفعى الضارية كما كانت غير أنها لاتجد المجال للتحرك. إنما الكمال الحقيقي هو حينما يكون الإنسان دون أي إجبار عملي مع توفّر وسائل المعصية وأدوات العمل قادراً على اجتناب المعصية بمحض ارادته[12].

التفسير المقلوب للتوكل

للتوكل مفهوم أخلاقي تربوي في الإسلام، إذ يريد الإسلام أن يربي المسلم متوكلاً على الله. وإذا ما درست آيات التوكل في القرآن الكريم فإنك تجد انسجاماً غريباً فيما بين مفاهيمها، حيث يلاحظ الإنسان أن للتوكل في القرآن مفهوماً حياً وحماسياً. أي كلما أراد القرآن أن يدفع بالإنسان إلى العمل وأن ينزع عنه الخوف والرهبة، يقول له: لاتخف وتوكل على الله، وتقدم واثقاً بالله عز وجل، قل الحقيقة معتمداً على الله، وثق بالله ولاتخش كثرة الناس.

---

(11) مطهري، حق وباطل [الحق والباطل]، ص97-98.

(12) مطهري، ده گفتار [المقالات العشرة]، ص9.

ولكنك حين تبحث عن مفهوم التوكل في تفكير المسلمين اليوم، تجده مفهوماً ميتاً. فعندما نريد أن نركن للسكون ونتجنب التحرك، وحينما نريد إلقاء المسؤولية عن كواهلنا، حينها نتمسك بالتوكل. فمفهوم التوكل في أذهاننا هو تماماً على العكس من تعاليم القرآن في هذا المجال[13].

هل يعني الزهد فصل الدين عن الدنيا؟

الحديث عن الزهد هو نفس الحديث عن عبادة الدنيا وترك الدنيا وما شابه ذلك من المعاني والمفاهيم. ورغم أن هذه الكلمة لم تذكر في القرآن بهذا المعني، إلا أنها طالما تكررت في السنة الشريفة.. في كلمات الرسول الاعظم ﷺ وكلمات الإمام أمير المؤمنين وسائر الأئمة : بحيث لايمكن الشك بأن هناك مفهوماً قدّسه الإسلام ودعا الناس إليه، وقد تم التعبير عن هذا المفهوم بكلمة الزهد. كما أنَّ كلمة الزهد كثيراً ما وردت في الشعر والنثر الإسلامي ـ سواء باللغة العربية أو الفارسية ـ ولكن كيف ينبغي أن يكون تصوّرنا وفكرتنا عن الزهد في المنظار الإسلامي استناداً إلى الشواهد والادلة والتعاليم القرآنية في هذا المجال؟.

وتعني كلمة الزهد في اللغة: الرغبة عن الشيء وتركه. وزَهَدَ فيه أي رغب عنه وتركه بطبعه. ولكن الثابت أنَّ الزهد الذي يُستخدم بالنسبة للدنيا في التعاليم الإسلامية وكذلك في التعاليم المسيحية وغير المسيحية، هو إصطلاح خاص.

فالزاهد ليس هو الشخص الذي لايرغب في الشيء بناءً على طبيعته، كالمريض الذي لايرغب في الطعام، أو الشخص الذي يكره الحلوي، أو الشخص العاجز عن ممارسة الجنس والذي لايرغب في النساء أساساً. فالمقصود بالزاهد ليس هو الشخص الذي لايرغب في الأمور الدنيوية بطبعه وغريزته، بل إن الزهد إنما هو مفهوم أخلاقي، والزاهد هو الشخص الذي يرغب بطبعه وغريزته في اللذة المادية، إلا أن سلوكه وعمله يشبهان عمل

(13) مطهري، حق وباطل [الحق والباطل]، ص124-125.

وسلوك الأفراد غير الراغبين وذلك لاهداف وغايات خاصة. أي أنه يغض الطرف عن الشيء الذي يرغب فيه لهدف معَيّن. وبعبارة أُخرى: إن الاهتمام الروحي والفكري بشيء ما واعتباره هدفاً للعمل والتحرك، أمرٌ والرغبة الطبيعية أمر اخر. فالزهد هو إهمال وعدم إعتناء بالأمور المرغوبة طبيعياً وغريزياً. إذن، فهذا هو معني الزهد حسب العُرف. يعني أن يتخلي الإنسان لهدف معَيّن عن الأمور التي تنسجم مع طبعه، والان علينا أن نبحث عن هذا الهدف من وجهة نظر الإسلام. ففي البدء هل توجد في الإسلام هذه المسألة على أنها أمر واجب أو مستحب؟. أي هل يوصي الإسلام وجوباً أو ندباً بأن يغض الإنسان طرفه أحياناً عن اللذات المادية المنسجمة مع طبيعته في الدنيا لهدف ما؟ أم أنه لاوجود لهذه المسألة أساساً، وأن الإسلام لم يوصِ بترك اللذة المادية لهدف ما ـ مهما كان ذلك الهدف ـ ؟

إذا قبلنا أن هذه الفكرة موجودة في الإسلام، فما الاهداف التي يوصي الإسلام بالزهد من أجلها؟ ما الاهداف السامية التي يعتبر الإسلام إهمال المشتهيات وعدم الإعتناء بها، شرطاً لازماً ومقدمة لها؟

وبشكل عام: ما الاهداف التي يحبّذها الإسلام ويوصي بضرورة إعراض الإنسان عن لذائذ الدنيا، من أجل التوصل إليها وتحقيقها؟

يتصور بعض الناس إن فلسفة الزهد تتلخص في أن أمور الدين تنفصل تماماً عن أمور الدنيا كالتجارة والصناعة والزراعة، وأن كل واحد من الأمرين يرتبط بعالَم مستقل عن عالَم الآخر. فاهتمام الدين هو العبادة، بينما إهتمام الدنيا هو الكسب المادي والتجارة والصناعة والزراعة والادارة وما شابه ذلك، والزهد يعني العزوف عن الاهتمامات الدنيوية والإقبال نحو الاهتمامات الُاخروية. ولاشك في خطأ هذه النظرة، ذلك لأن الأمور التي أُعتبرت دنيوية هي أمور وصّى بها الإسلام، وأنَّ الزهد لايشملها بأي شكل من الاشكال. ومن خلال تتبعنا للنصوص القطعية الإسلامية، نجد أنَّ هناك نوعين من الزهد لا يوجدان في الإسلام، ولكنهما موجودان في غير الإسلام.

أحد الزهدين يقول إن أمور الدنيا وأمور الآخرة منفصلتان عن بعضهما

بعضاً، أي أننا أمام نوعين من الاهتمامات: بعض الاهتمامات تتعلق بالدنيا كالكسب والتجارة والزراعة والصناعة واكتساب الرزق والحصول على المال، فكلما يتعلق بالحياة الدنيوية، يرتبط بالدنيا ولا علاقة له بأي عالَم آخر. ومن جهة ثانية هناك اهتمامات أُخرى لاترتبط بالحياة الدنيوية، أي ليس لها أي تأثير ايجابي ومفيد على الحياة الدنيا، إن لم تكن لها تأثيرات ضارّة وسلبية، وتلك هي العبادات، وتعني العبادة: الدعاء، والصوم، والرياضة الروحية، وبهذا المفهوم فالزهد يعني ترك الدنيا لكي يتفرغ الإنسان لاعمال الآخرة. ويفسّر كتاب «المنجد في اللغة»[14] الزهد بهذا المعنى المذكور، وهو مفهوم مسيحيّ تماماً، يقول: «زهد في الدنيا» أي تخلّي عنها للعبادة: وتَزَهَّدَ: ترك الدنيا للعبادة. وعليه فإن أمور الدنيا هي منفصلة أساساً عن الآخرة، ولكل واحد منهما حساب خاص. فبعض الأعمال والاهتمامات ترتبط بالحياة الدنيا ولا تنفع الآخرة مثقال ذرة، بل قد تضرها أيضاً، وهناك اعمال واهتمامات أُخرى ترتبط بالآخرة وتُسمي «العبادات» وهذه لاتنفع أمور الدنيا شيئاً وقد تضرّها أحياناً.

إذن، فالزهد يعني التخلي عن إهتمامات الدنيا للتفرغ لتلك المجموعة من الأعمال التي نسميها أعمال الآخرة. وحينئذ فلكي نكون زاهدين بهذا المعنى ليس أمامنا إلّا الإنفصال عن المجتمع، فطريق هذا الزهد هو الاعتزال والانطواء والرهبنة واللجوء إلى الكهوف والاديرة والصوامع، والنتيجة هي الرهبنة الشائعة في العالَم المسيحي.

فهل يقبل الإسلام بهذا المفهوم والتصوّر عن الزهد؟ كلا. فهذا من الأمور الواضحة والتي لا تحتاج إلى الاستدلال...

... إن الإسلام يعارض الرهبنة واعتزال المجتمع معارضة قاطعة، فرسول الله ﷺ يقول بصراحة: «لا رهبانية في الإسلام» أي إن اعتزال الحياة الدنيوية للتوصل إلى الآخرة لاوجود له في الإسلام أصلاً، وقال الرسول ﷺ أيضاً:

---

(14) كرم البستاني، **المنجد في اللغة**، من تأليف قسيس مسيحي ونشر دار كاثوليكية في لبنان.

«... إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنما رهبانية أُمتي الجهاد في سبيل الله...»، ثم إن الإسلام يوصي بصراحة بكل الاشياء التي تسميها الأديان الأخرى بالدنيا ويعتبرها قسماً من العبادة...

فالأشياء التي يعتبرها الزهد المسيحي جزءً من الدنيا، يعتبرها الإسلام بشرط واحد جزءً من الآخرة، والشرط هو أن تصدر من الإنسان قربةً إلى الله تعالى، فالإسلام لايعترف بالفرق بين الدنيا والآخرة بشكل يقسم الأمور إلى مجموعتين منفصلتين. فالرؤية الإسلامية تقول: إن الزراعة والتجارة كما هما من أمور الدنيا كذلك يمكن أن تكونا من أمور الآخرة، أي إن الأمر يتوقف على هدفك، فإنك حينما تعمل لاكتساب المال، فإذا كان ذلك عن الطرق المشروعة، وإذا لم تكن تجارتك ربوية، وإذا لم تكن صفقتك غررية، ولم تتجاوز حدود الإنصاف في عملك، بل يَكون عملك التجاري من أجل كسب الثروة وإنقاذ نفسك من الذل والسؤال، وفي سبيل خدمة مجتمعك، ومضاعفة قدرته الاقتصادية، إذا كان الأمر كذلك فإن عملك هذا يُعتبر عبادة في الرؤية الإسلامية، كذلك الأمر بالنسبة للزراعة والعمل في مجال الثروة الحيوانية حيث تُعتبر عبادة أيضاً. وعليه فإن هذه الأمور لاتُعتبر خارج المجال الأخروي في المنظار الإسلامي، بل كل هذه الأمور تدخل ضمن نطاق العبادات بالنسبة لمن يعرف الأهداف الإسلامية ويعمل على تحقيقها.

بالمقابل، ما تعتبره الأديان الأخرى عبادات، يُعتبر في الرؤية الإسلامية من أمور الحياة الدنيا، أي أن الصلاة والصيام مثلاً لا تنفع الآخرة فحسب، بل تنفع الدنيا أيضاً، والدعاء كذلك، فكما يمكن أن ترتبط التجارة والزراعة بالآخرة، كذلك تكون العبادة نافعة للدنيا.

ولذلك فلا وجود للزهد في الإسلام بمعني تقسيم الأمور إلى مجالين منفصلين؛ أحدهما يرتبط بالدنيا فقط والثاني يتعلق بالآخرة، بل الإسلام يحدد لنا ماهو حلال، وماهو حرام، فهو يقول مثلاً: الخمر حرام، لأنها تضر دنياك كما تضر آخرتك، والقمار والربا محرمان، لانهما يفسدان حياتك الدنيوية كما يهدمان اخرتك، فإذا كنت تسمي هذه أموراً دنيوية، فليكن.

كان هذا نوع من الزهد وهو ما يتفق مع المنظار المسيحي، وهذا مايرفضه الإسلام، ولكن تصور كثير منا ـ وللاسف ـ عن الزهد هو بشكله المسيحي هذا[15].

هل يعني الزهد، التخلي عن لذات الدنيا؟

وللزهد مفهوم آخر ينبغي توضيحه أيضاً، وهو عدم الفصل بين مجال الدنيا ومجال الآخرة، بل علينا القيام بكل أعمال الدنيا لأن ذلك واجب، ولكن علينا الفصل بين اللذة الدنيوية واللذة الأخروية. فنحن علينا إما أن نتلذذ في الدنيا ونحرم أنفسنا من لذة الآخرة، وإما أن نسعى للحصول على لذة الآخرة ونحرم أنفسنا من لذة الدنيا، أصحاب هذه الفكرة لايقولون بالتخلي عن الكسب المادي والعمل وممارسة الحياة، بل يقولون، علينا أن نقوم بكل ذلك لانه واجب ومسؤولية، ولكن علينا أن نتجنب التلذذ بالدنيا، ذلك لانه بقدر ما نتلذذ في الدنيا فإن اللذة الآخروية تتناقص، وبقدر ما نسعد في الدنيا فإن السعادة الُاخروية تضعف، إذن فإننا نضحي بلذة الدنيا حتى نكسب لذة الآخرة. يقول ابن سينا في النمط التاسع من كتابه «الإشارات»: «المُعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يُسمى باسم الزاهد» هل إن أساس مبادلة اللذات أمر صحيح؟ وهل يقسِّم الإسلام اللذات إلى هذين القسمين؟ أي هل يرى الإسلام أن الإنسان لو تلذذ بالدنيا فلابد أن يُحرم من لذة الآخرة؟ ومن جهة أُخرى، هل يري الإسلام أنه لو حرّم الإنسان على نفسه لذّات الدنيا فإنه يُعطي اللذة في عالَم الآخرة ويقال له: لانك حرّمتَ على نفسك لذات الدنيا فتمتع بلذات الآخرة الآن عوضاً عن ذلك؟ وبتعبير آخر: هل قُسمت اللذات على الناس إلى حصص محددة وعلى كل شخص أن ينال حصته من اللذة إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة؟ فإذا نال حصته في الدنيا فلا شيء له في الآخرة، أما إذا لم ينل حصته هنا، فله الحق أن ينالها في الدار الآخرة؟ ويتصور البعض أنَّ مفهوم الآية القائلة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ هو بهذا المعنى.

(15) مطهري، حق وباطل [الحق والباطل]، ص136-142.

ولكن هذا المفهوم خاطئ أيضاً. فلو أن شخصاً حرَّم على نفسه في الدنيا التمتع، اعتماداً على أنه سوف ينال لذّات الآخرة، فلا شك في أنه لا تُعطي له أية لذة في الدار الآخرة اعتماداً على هذه المحاسبة. فلا يُقال له: لقد كُنتَ عبداً طيباً لانك لم تنتفع بلذّات الدنيا، وبسبب حرمان نفسك في الدنيا، فنحن نمنحك اللذات هنا، كما لايُقال له أيضاً: إنك تطالبنا بمقدار من اللذة ولانك لم تنتفع بها سابقاً (في الدنيا) فمن حقك أن تتمتع بها الان. لاوجود لهذا الأمر حتماً، أي إن لذات الآخرة ليست نتيجة الحرمان العمدي الذي يفرضه الإنسان على نفسه في الدنيا، بل هي وليدة عوامل أُخرى.

أما الجهة الأخرى من القضية: فهل يقال لنا في الآخرة: إنكم تمتعم بلذات الدنيا فلا يحق لكم التمتع بلذات الآخرة الان؟ بناءً على هذا، فإن على الإنسان إن يتحمل إحدى الشقاوتين، إما الحرمان في الدنيا وإما في الآخرة، ولا يمكن الجمع بين السعادتين في الدارين.

هذا المفهوم مرفوض هو الآخر في المنطق الإسلامي. يقول الإمام علي عليه السلام في عهده إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلده مصر: «واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وأجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في اخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكِنَت وأكلوها بأفضل ما أُكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلِّغ، والمتجر الرابح...»[16].

أجل، إن بعض اللذات في الدنيا يحرمها الإسلام، وإن التمتع بلذات الدنيا المحرمة يؤدي إلى حرمان الإنسان من لذات الآخرة، بل إلى تحمل العذاب هناك، فلذّة الزنا في الدنيا ولذة شرب الخمر تؤدي إلى حرمان الإنسان عن لذات الآخرة حتماً، بل تجلب عليه عذاب الآخرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى لذة القمار، ولذة الربا، ولذة الغيبة، ولذة الكذب، وكل لذة محرمة بشكل عام.

---

(16) **نهج البلاغة**، رسائل امير المؤمنين الامام علي، رقم 27.

أما بالنسبة إلى اللذات المحللة فليس الأمر كذلك، فالقرآن الكريم يصرِّح بأن الله أحل الطيبات في الدنيا، فكلما هو طيب وطاهر ولا يجلب الشقاء للإنسان فهو حلال، أما اللذات المحرمة فهي لاتحتوي على لذة حقيقية بل هي عوامل شقاء الإنسان، فالخمرة قد تتصورها لذة وسعادة، ولكنك تغفل عن نتائجها السلبية على روحك وبدنك ومجتمعك. إنك تشاهد اللذة الانية للزنا ولكنك تغفل عن نتائجه المدمرة، فالقرآن إنما يحرم الزنا لانه خبيث ومضر، أما اللذات التي لاتنتهي إلى نتائج سلبية فليست محرمة. لنستمع إلى ايات الذكر الحكيم.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الاعراف: 157].

إنه منطق رفيع، فكل ما هو طيب للروح والبدن والمجتمع، فهو حلال، وكلما هو خبيث فهو محرم.

ويقول الله تعالى:

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الاعراف: 32].

ويقول أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: 51].

إذن، فلا يوجد في الإسلام المنطق القائل بأن الزهد هو التخلي عن اللذات المحللة في الدنيا لنيل لذات الآخرة عوضاً عن ذلك، فلا وجود لهذه المعاوضة.

ولكن في الوقت نفسه، فإن الزهد موجود في الإسلام، وعلينا أن نعرف إن ما يُسمي في الإسلام بالزهد ليس واجباً بل هو فضيلة وكمال ولكن ليس للهدفين اللذين ذكرناهما، بل لهدف اخر. أجل فالإسلام يوصي في بعض الحالات بالزهد ولاهداف وغايات معَيّنة، أي يوصي الإنسان بأن لايعبد اللذة، وأن لايغرق في لذات الدنيا، ولكن لو أغرق الإنسان نفسه في لذات الدنيا المحللة فإنه لم يرتكب محرماً، ولكن لو لم يفعل يكون قد قام بعمل

أخلاقي كبير، فالإسلام لايوافق عبادة اللذة ولو عن طريق الحلال.

فالإسلام يرضى للإنسان أن يزهد في الدنيا، أي أن يتخلى عن اللذات المحللة وذلك لعدة أهداف سامية. فالإنسان قد يعيش ظروفاً يجد فيها أُناساً آخرين يعانون الحاجة أكثر منه، فماذا عليه أن يفعل في مثل هذه الحالة؟ يسلك طريق الإيثار والجود والعطاء، يتنازل عن اللذة المحللة لنفسه ليعطيها للاخرين، لا يأكل لكي يُطعِم الآخرين، . . . لا يلبس حتى يُكسي غيره، فهو يضحي براحته لكي يوفر الراحة لغيره، يتخلى عن اللذة لكي يمنحها للاخرين. هذا هو الايثار، وهو أسمى وأعظم الخصال الإنسانية، وهو أكثر أعمال البشر إنسانية. إنه الزهد ولكنه زهد إنساني. زهد سليم. زهد سام، هذا هو الزهد الذي عُرف به على بن ابي طالب عليه السلام إذ كان يكدح ويعمل ويكسب المال، ولكنه لم يكن يأكل لكي يُطعم الآخرين ولم يكن يلبس لكي يُكسي الآخرين: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان، 8-9] فهل يرضي الإسلام بهذا النوع من الزهد والإعراض عن لذات الدنيا؟. هل يرضي بهذا الاعراض الذي له هدف إنساني معقول؟ بالطبع، يرضى به. فأي عاقل يستوعب هذا النوع من الزهد ثم لايرضي به؟ فالدين الذي لايوصي بهذا الزهد ليس هو الدين المطلوب. والمدرسة الاخلاقية التي لاتوصي بهذا الزهد، غافلة عن المفاهيم الإنسانية السامية، ولا تفهم من الإنسانية شيئاً. هذا هو أحد أهداف الزهد وفلسفاته، الزهد الذي يرضي به العقل والوجدان، والإسلام يوصي بهذا النوع من الزهد. يقول القرآن الكريم عن الانصار من أصحاب الرسول وهم المؤمنون من أهل المدينة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] فهم يؤثرون إخوانهم المؤمنين على أنفسهم حتى ولو كانت بهم حاجة ومشقة.

ويروى أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يصوم ثم كان يأمر بإعداد طعام له، وكان الطعام عادة يتشكل من اللحم المطبوخ، وعندما كان يحين وقت الإفطار كان يقف الإمام عند القدر وكان يأمر بالصحون فيملؤها واحدة بعد

أُخرى ويبعث بها إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، وفي النهاية كان يُبقي لنفسه صحناً واحداً بمقدار ما يكفي طعام الإنسان، وكثيراً ما يأتي فقير في اللحظة الاخيرة فيدفع الإمام إليه بالطعام المخصص لنفسه. هذا هو الزهد. وهذا هو العمل الإنساني العظيم، وهو أحد جوانب فلسفة الزهد في الإسلام، والإسلام يشجع هذا النوع من الزهد الذي لايعني تجشّم عناء الحرمان اللامنطقي الذي يقول بالتخلي عن لذات الدنيا لنيل لذات الآخرة، أو بالفصل بين مجال الدنيا ومجال الآخرة، فالزاهد في الإسلام إنما يزهد لكي يؤثر الآخرين على نفسه ولكي يتعاطف معهم[17].

الإسلام وجمع الثروة

قد يتصور البعض إن الإسلام يبغض الثروة أساساً ويعتبرها شيئاً خبيثاً ينبغي التخلص منه. وما يكون خبيثاً ومبغوضاً ينبغي التخلص منه لاتوضع له قوانين وتعاليم خاصة، وبتعبير آخر: إذا كانت مدرسة فكرية ما تقف موقف المعارض من شيء معَيّن وتعتبره من المهملات، فلا يمكن أن تضع القوانين لذلك الشيء، بل غاية ما يمكن أن تقرره في هذا المجال هو النهي عن ايجاد ذلك الشيء، والنهي عن لمسه، وعن التعامل به، واستهلاكه، كما هو الأمر بالنسبة إلى الخمر مثلاً، حيث تقول الرواية:

«لعن الله بائعها ومشتريها واكل ثمنها وساقيها وشاربها».

إن هذا التصور عن الثروة تصور خاطئ، فالإسلام لايحتقر المال والثروة بأي حال، لا إنتاجهما، ولا مقايضتهما، ولا استهلاكهما. بل يؤكد على كل ذلك ويوصينا به، ويضع له الشروط والموازين، فلا تُعتبر الثروة في المنظار الإسلامي من المهملات التي يجب إلقاؤها جانباً، بل التخلص من الثروة عن طريق الاسراف والتبذير وتضييع المال أمر محرم دون شك. ومنشأ هذا التصور الخاطي هو معارضة الإسلام للتعامل مع الثروة باعتبارها هدفاً ولتضحية الإنسان بنفسه من أجل الثروة، ومكافحته الشديدة لهذا التوجه. وبتعبير آخر:

(17) مطهري، حق وباطل، [الحق والباطل] ص142-148.

الإسلام يعارض تأليه الثروة، وتحوّل الإنسان عبداً للمال، وكسب الإنسان المال بهدف جمع المال وادّخاره، وهذه هي حالة الحرص التي يتحدث عنها القرآن الكريم بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

كما يعارض الإسلام طلب المال من أجل إشباع البطن فقط والاستهتار والبطالة، وهذا هو الركض وراء الشهوات.. وفي هذه الحالات فإن طلب المال يكون مرادفاً للخسّة والدناءة وذوبان الشخصية الإنسانية في المال، وانعدام شخصية الإنسان وكرامته المعنوية.

والنقطة المخالفة لذلك هو أن يطلب الإنسان المال باعتباره وسيلة للعمل والتحرك والنشاط والانتاج، وفي هذه الحالة فإن المال يكون تابعاً لذلك الهدف العام الذي يطلب الإنسان المال من أجله. جاء في حديث عن رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وتقول الاية الكريمة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 6-7] وهكذا يبين القرآن دور المال في إفساد الشخصية الإنسانية. ونقرأ في مكان آخر من القرآن: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم 10-15] وفي اية أُخرى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: 14] فكما أنه ليس الهدف هو إهمال النساء والبنين والتخلص منهم، كذلك بالنسبة للمال والثروة ليس الهدف التخلص منهما.

فالإسلام الذي يدين تأليه المال وعبادة الثروة، لا يدين المال والثروة أنفسهما، ذلك لأنه:

1 ـ يوصي بإنتاج الثروة من خلال الزراعة، والثروة الحيوانية، والصناعة وغيرها.

2 ـ يوصي بمبادلة الثروة، أي التجارة والمقايضة.

3 ـ يوصي باستهلاك المال وصرفه شخصياً في حدود الحاجات الفردية بعيداً عن الإسراف والتبذير المفسدين للإنسان.

4 ـ يمنع التبذير والاسراف وتضييع المال.

5 ـ يشرع القوانين القضائية والجزائية المتشددة حول السرقة والخيانة وأكل المال بالباطل.

6 ـ يعتبر الدفاع عن المال بمثابة الجهاد والمقتول في هذا الطريق بمثابة الشهيد.

7 ـ يجعل للمال حقوقاً على الإنسان.

8 ـ ويسمي القرآن الثروة «خيراً»: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: 180][18].

الافراط في العبادات

لابد من الاعتراف بأننا لانعرف طريقة العبادة أيضاً، أي اننا نعجز عن إدارة انفسنا بالشكل الصحيح حتى في مجال العبادة. فالكثير يتصورون أنه مادامت العبادة حسنة فزيادتها أمر حسن أيضاً، دون أن يفكروا في أن العبادة إنما تكون مؤثرة إذا هضمتها روح الإنسان وتغذّت منها بصورة سليمة. فكما إن الاستفادة من الطعام الجيّد لاتعني الإكثار منه بلا حدود، كذلك الأمر بالنسبة للعبادة أيضاً. فالعبادة ينبغي أن تكون مرادفة لانشراح الروح، ولا أقصد بذلك وجود الانشراح الروحي اولاً ثم البدء بالعبادة، فما أكثر الافراد الذين لا وجود للانشراح عندهم أبداً، بل الانشراح والنشاط يوجدان بشكل تدريجي عن طريق العبادة والاستيناس بذكر الله، فإذا كانت العبادة حسب القواعد المطلوبة فإن الرغبة والنشاط يوجدان شيئاً فشيئاً. المقصود إن طاقة

(18) مطهري، نظرى به نظام اقتصادى اسلام [رؤية حول نظام الاقتصاد الإسلامي]، ص17-20.

الإنسان للعبادة هي طاقة محدودة، فلو اشتغل الإنسان فرضاً بالعبادة بنشاط ولكن بعد فترة وحين يتعب البدن فإن النشاط يزول هو الآخر وتتحول العبادة إلى حالة من الفرض والإكراه، وتصبح بمثابة الطعام المنفور والمثير للاشمئزاز الذي يدفعه الجسم عن طريق التقيوء أو أي طريق آخر، وليس بمثابة الطعام المحبوب الذي يهضمه الجسم.

يقول الرسول العظيم ﷺ مخاطباً جابر بن عبدالله الانصاري: «يا جابر! إن هذا الدين لمتين، فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله» أي إن الإسلام دين قوي وثابت ومنطقي وقائم على أسس دقيقة نفسية وإجتماعية، فعليك أن لا تتصرف بطريقة تبغض العبادة لنفسك، بل تصرف بأسلوب يُحبب العبادة لنفسك ويجعلها تُقبِل على العبادة برغبة واشتياق. ثم أضاف الرسول في كلمته: «فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» أي الذي يرهق مركبه في قطع الطريق بشكل متواصل فإنه لايحقق هدفه في قطع المسافة المطلوبة، ولا هو يحافظ على سلامة مركبه...

ويقول الرسول ﷺ في رواية أُخرى: «طوبى لمن عشق العبادة وعانقها» فإنما ينتفع بثمرات العبادة ونتائجها السامية اؤلئك الذين يمارسون العبادة بطريقة تجعل قلوبهم تختار العبادة بعشق ورغبة. فللعبادة الجيّدة والاستفادة من مواهبها الية خاصة ترتبط بُحسن الادارة، أي حُسن إدارة النفس، والمشاعر، والعواطف، والغرائز والقلب والفؤاد في نهاية المطاف. فالفؤاد والشعور والعاطفة تحتاج إلى الادارة السليمة أكثر من أي شيء اخر[19].

المسلم سجين العادات

بعض أفراد البشر يدمنون أشياءً خاصة، وما أكثر الإدمان في عصرنا الحاضر، وربما القليل من الافراد لايدمنون أي شيء في حياتهم، أما أكثرنا فلابد أن يكون مدمنا على شيء واحد على الاقل، وأضعف ذلك هو الادمان على الشاي، فإذا لم يشرب الشاي يصاب بالصداع، وكثير من الناس يدمنون

(19) مطهري، امدادهای غیبی [الإمدادات الغيبية]، ص105-107.

التدخين بحيث لولم يدخن لفترةٍ ما، أصابه الدوار، وهناك أقلية من المجتمع يدمنون الاشياء الخطيرة والمحرمة حتماً كالمواد المخدرة.

وكلما كان الإنسان مدمناً على أشياء اكثر، كان ارتباطه بها أكثر حيث يكون أسيرها على الدوام، وبقدر ما يكون الإنسان أسير عاداته فإنه يفتقد من حريته القدر نفسه. ولكن ليس الشاي والتدخين والمخدرات هي الوحيدة التي يدمنها الناس، بل قد يدمن الإنسان النوم على فراش وثير جدّاً، فإذا ما اضطرته الظروف في يوم من الأيام إلى النوم على السجاد أو حتى على الارض فإنه يصاب بالأرق ولايقدر على النوم، فإذا خرج من دائرة ظروفه التي تعود عليها إلى درجة الإدمان فإنه يكون كالمصاب بالشلل[20].

هدف الانفاق

لايجوز أن ننظر إلى الإنفاق من جانب واحد ونقول إن فلسفته إشباع الجائعين فقط، ولذلك يمكن معالجة هذا الأمر عن طريق اخر. كلا.. إن فلسفة الانفاق هو بناء الإنسان، ذلك أنَّ روح الإنسان إنما تكون إنسانية حقاً إذا تعودت على الاحسان والعطاء والايثار.

بناءً عليه، فلا يحق لأحد أن يقول إنني شخص قانع واكتفي بلوزة واحدة، ولا أُريد أن امتلك شيئاً، ولذلك فأنا إنسان كامل، كلا.. إن الشخص الذي يستطيع أن يمتلك المال عليه أن يحصله ويكسبه ثم يعطيه ويهبه للاخرين، وبذلك تتكامل روحه، أما عدم امتلاك شيء وعدم العطاء فلا يُعتبر كمالاً، إنما الحصول على الشيء، ثم التخلي عنه هو الذي يبني شخصية الإنسان.

وبوضوح نستطيع ملاحظة هذه الفكرة في القرآن الكريم، حيث يخاطب الله رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ [التوبة: 103].

(20) مطهري، حق وباطل [الحق والباطل]، ص161-162.

فقد يتصور بعضنا إن فلسفة الإنفاق هو سد الثغرات الاجتماعية، فيقول لو تكفّلت الحكومة بهذا الأمر واستطاعت أن تحل مشكلات الفقر والمسكنة، لم تبق حاجة للقيام بالمسؤولية بصورة إنفاقات فردية.

ولكن الأمر ليس كذلك، اي إن فلسفة الانفاق لا تقتصر على سد الثغرات فحسب، بل للانفاق علاقة أساسية بعملية «بناء الإنسان»، وهي أن يمتلك الإنسان شيئاً، ثم يتخلي عنه، ويصبح مظهراً لرحمة الله عز وجل، إن هذا الخُلق يلعب دوراً كبيراً في بناء الإنسان. فالتعاطف مع الآخرين هو هدف في ذاته... هدف أساسي ومهم، وإذا ما انعدم هذا المفهوم في المجتمع، فإن الأمر يكون بمثابة إنعدام العطف والمحبة من الجو العائلي وتشكيل مؤسسات تربوية في مكان ذلك[21].

(21) مطهري، آشنايى با قرآن [التعرف على القران]، ج2، ص69-70.